المناضلة المدنية الأنيسة

كلمة رائد شرف الدين

بمناسبة اللقاء التكريمي للسيدة أنيسة النجار

النادي الثقافي العربي

٧ آذار ٢٠١٢ | بيروت

سيدتي الأنيسة،

يا حبيبة كل أب أو أم أولدتها من رحم الحياة. يا حبيبة كل طفل أولدت أباه أو أمَّه فصرت له جدة.

يا حبيبة كل زميل أو زميلة في مدرسة أو جامعة أو صحيفة، وكل رفيق في سفر لمهمة من المهام.

أنا واحد من هؤلاء وسواهم. أطلقتني وآخرين طفلاً، وكان في لبنان تفجر الأحقاد ضد الإنسانية، وكأنك أردت أن تلدينا أولاد السلام، بأن نقف، ونحن دون أن نعي ما نحن فيه إلا أنه جمال وأنس وملاعب طفولة. أنتِ مثال السلام يا ست الحبايب.

من أين أدخل بحرك اللجي؟ وكيف لي أن أحيط بشطآنه أو أن ألملم شذرات عمرٍ من الانجازات في بضع من الدقائق؟

لديَّ دوافع ثلاث لأن أحشد لتكريمك ما بوسعي من الكلمات:

- أنتِ أولاً أنيسة نجار، ونقطة على السطر؛
- وأنتِ ثانياً امرأة، وما أدرانا أن يكون المرء امرأةً في هذا الشرق؛
- وأنتِ ثالثاً مناضلة مدنية في مجتمع نخرته الطوائفية والقبلية والعشائر.

أخواتي وإخوتي،

كلام تمتزج فيه العاطفة بالتحليل الهادئ، ولا بدّ لي من الاثنين لو أردت أن أرسم ملامح حياة تضجّ حركةً وفاعلية. فأنيسة نجار سجل توثيقي للقرن العشرين. أنجبها والدها وسرعان ما رحل، فإذا بها تشق الطريق بإصرار: تتجول بين قضايا المجتمع وتؤسس المجلات وترأس الجمعيات وتشكل المجالس وتمثل بلدها في المنتديات والأروقة المحلّي منها كما الإقليمي والدولي. وهي إذ تعترف النخبة بها عبر المنابر، فإن جوهر عطائها تبلور في العمل المحلّي، في جمعية إنعاش القرية، وفي المحترفات اليدوية وفي الحلقات البحثية والتدريبية.

كانت المنطقة، عند ولادتها، على أبواب حرب عالمية انتهت بتغييرات أنظمة، ومخططات جغرافية، وتبدلات في السلطات. الأوضاع الاجتماعية كانت في غاية التخلف، فالأقسام، في الدائرة التي أصبحت لبنان الكبير، ثم الجمهورية اللبنانية، موزعة إقطاعات مطلقة الصلاحية لحكامها الإقطاعيين، والمنطقة المحددة بالمتصرفية، كانت مجموعاتها البشرية توجه من قوى الخارج منذ أواسط القرن التاسع عشر، مما كان يستثير الصدام تلو الصدام (وما أشبه اليوم بالبارحة).

في هذا المناخ الداكن، ومن تحت أنقاض التخلف، انطلقت هذه الصبية الواعدة، لتسير بخطوات ثابتة، فتتوسل التعلم على ندرة المتعلمين والراغبين في التعلم حسب المناهج الحديثة. وعلى اعتبار التعليم مادة استهلاكية، وليست حاجةً انمائية.

مجالات أنشطة أنيسة نجار، كالماسة تعكس أوجهَ عدّة. ونحن لا نزال مستغرقين بها عاطفيا"، نستحضر البعض من هذه الأوجه:

١- أنها اخترقت عوائق المجتمع المحافظ التي كانت لا تزال لعهد قريب قائمةً، تحول دون الفتاة وحقها بالمعرفة، وحتى اليوم تحول دون مساواتها بالرجل.

٢- وفي المجتمع التقليدي، يكون الاختراق نحو الغد الأفضل مهمّة صعبة ومركبة وطويلة، إلاّ أنها ممكنة وضرورية. فالتغيير المنشود ليس مسرحه القيادات والتشريعات فقط، بل أيضاً – وربما الأهم- ما يحدث في أوساط العامة: على مستوى العائلة والحي والشارع والمدرسة والوسيلة الإعلامية. وفي كل دائرة من هذه الدوائر تلعب المرأة دوراً محورياً، وإلاّ فإننا نعيد إنتاج الأوضاع القائمة بكل ما فيها من وهن وقصور. وقد أثبتت المرأة مقدرة عالية على تبوأ مواقع المسؤولية واتخاذ القرار، وعلى إطلاق المشاريع الناجحة وإدارتها. كثيرات هنّ النساء المثال على ما أقول. وتبقى عميدتهنّ أنيسة نجار.

٣- ساعدتنا أنيسة نجار على فهم " المجتمع المدني" عبر ارتباطاته بما يدور فعلاً في واقعنا. أي ليس بالضبط ما تريده النخب العربية أو ما تعبّر عنه في أدبياتها، كونها تستعير الكثير من مضامين المجتمع المدني كما ظهر وتجلّى وتطور في المجتمعات الغربية منذ الثورة الصناعية ولغاية اليوم. وعليه، يكون المجتمع المدني المجال الذي يعبرّ فيه المواطنون عن حقوقهم ومسؤولياتهم ويترجمون حوارهم في صياغة العقد الاجتماعي الذي يرتضون. وبهذا التعريف يتجلّى الترابط الوثيق ليس فقط بين المجتمع المدني والعقد الاجتماعي، بل أيضاً المواطنة (الحقوق والمسؤوليات) والديمقراطية (آلآليات الحوارية المفضية إلى صياغة التعاقد ومراقبة تطبيقه وتطويره).

بهذا نصل إلى أن المجتمع المدني هو أداة تأمل وتواصل تشير إلى تلك المساحة المتحركة بين الفرد مع حيّزه العائلي الخاص وبين المجال العام. وإلى أن منظمات المجتمع المدني تشير مفهومياً إلى كل الأطر المتمتعة بالحد الأدنى من التنظيم والساعية إلى التغيير الاجتماعي لصالح الحرية والعدالة الاجتماعية.

٤- بالنتيجة، لا يستغربنّ أحدٌ من أنيسة نجار أنها اقتحمت تمثيل لبنان في المحافل الدولية على مستوى الاونيسكو ووكالة التغذية الدولية. هذا غير تمثيل لبنان في مؤتمرات في شرقي العالم وغربه، الى جانب مهام تعليمية خارج لبنان، ومهام إجتماعية داخله بين رئاسة وأمانة سر.

٥- من سيرتها يبدو أنها قادرة ولكنها غير مزاحمة، وأنا أفهم من هذا أنها امرأة إنسان، تتمتع بكل مزايا القيادة الأخلاقية التي تعطي للأمور حقوقها، وتقوم بالمهام حسب مقتضياتها، وتدبر الشؤون على مستوى القيادة التي تقدر قيم الأشياء إخلاصا" ودقة، وتنافس بالجودة، لأنها من حقوق العمل، وليس للتباهي بالعمل، الذي هو الاسوأ أخلاقيا"، ومطعن في القيادة.

المحصلة من هذا التجوال، وبقراءة متأنية للسيرة والمسيرة، والتأمل فيما بعد الحرف، نجدها كمثل الارض: تنبت الزرع بكامل ما تختزن من طاقة، وبقدر ما كان من تغذية لهذه الطاقة. ولكن الأرض لا تستثمر ذاتها، هي تعطي للحياة من ذاتها، والحياة هي شأن معنوي يحافظ على الوجود المادي لاستمرار العمل وتطويره.

إذاً، ست الحبايب، أنبتتِ للأجيال كل شيء بهيج من كل ما يطالب به الآن المجتمع اللبناني والنسوي بالخصوص، وكل ما يناله الآن ترضيات لا حقوق.

وهنا لا أقوى إلا أن أطرح على نفسي والآخرين سؤالا". هل كان لنا عمق تواصل مع حياة سيدتنا المكرمة وحياة آخرين ممن صنعوا شيئا" من تاريخنا؟ هل استفدنا من تراكم خبراتها ومن سبقها وتلاها، واتخذنا منه ما يناسب زماننا مما نضيفه إلى خبراتنا؟ وهل استطعنا استخلاص منظومة فكر أو نهج بين ما كان وما يقتضي أن يكون؟

في الختام، وإن كنت قد استطردت في محاولة تفكيك بعض المفاهيم التي تتصل بمسيرة الأنيسة، ما كان ذلك إلاّ محاولةً لأن أفي المكرّمة حقها. ولا أظنني مجازفاً إذ أقول بأن ما ذكرت هو معالم المدرسة المدنية التي عملت أنيسة نجار على تشييدها. مفرداتها: الإصرار، الوضوح، الواقعية، الفعالية، الالتزام، المشاركة، الحوار، والتعددية.

حياتك سيدتي أشبه بمدونة سلوك لمواطَنَة كريمة مفرداتها الحقوق والواجبات والالتزام، وانجازاتك فائقة في التقاط التفاصيل ذات المغزى وحياكتها نسيج باهر زاخر أنيق أنيس.

شكرا لك على ما قدّمتِ.

وشكراً لكم، والى اللقاء في عيدها المئوي في حزيران ٢٠١٣ .